النيل في العهد الفرعوني

مقاييسه . إعياده . مدحته

للدكتور حسن كمال

— ٢ —

سنذكر للقارىء بياناً موجزاً لبعض مقاييس النيل التي كانت في عهد الفراعنة والتي لا تزال آثارها باقية للآن مبتدئين بأقصاها جنوباً ومنتهين بأقصاها شمالاً

(١) مقياس النيل في جهة سمنة : — في قلعة سمنة القديمة (بالسودان) نقوش غاية في الخطورة خاصة بمناسيب النيل وقت الفيضان. ويظهر أن مشروعات الري العظمى التي شادها امنمحعت الثالث (١٨٢٠ ق. م.) في الفيوم تطلبت معرفة حالة الفيضان قبل وصوله الى الفيوم بمدة كافية وكتابة هذه الاحوال بالضبط على الصخور وارسال اخبار الفيضان بواسطة اشارات من تل الى آخر حتى المركز الرئيسي . وهذه النصوص اوردها لبسيوس في مجلده الثاني من الدنكمار لوحة ١٣٩ وهي تقع على ارتفاع عشرين قدماً فوق سطح النيل الحالي . ومن هنا نشأ كثير من الارتباك والتخمين في تفسير هذا الفرق العظيم . ويستدل من طريقة نقش هذه النصوص انها حفرت عند حد المياه الحقيقي وليست عند النهاية العليا لجبل طوله عشر اذرع او عشرون ذراعاً مثلاً بينما نهايته السفلى تمس سطح النهر ويرى الاستاذ بتري ان نصوص سمنة تشير الى انخفاض قاع النهر في بلاد النوبة العليا بخلاف الحالة في مصر وهذا ينشأ من امرين اولهما تآكل قاع النهر الحجري وثانيهما ارتفاع قاع النهر عند طرف النوبة الجنوبي (راجع تاريخ مصر للاستاذ بتري جزء ١ ص ١٩٥) . والنصوص التي في جهة سمنة هي خاصة بالفيضان سنوياً في عهد الملك سباك حوتب الاول (٢٤٦٠ ق. م.) الى الرابع (اسرة ١٣) — راجع بتري جزء ١ ص ٢٥٩) . والمعروف ان امنمحعت الثالث (١٨٢٠) كان اعظم ملوك اسرته اهتماماً بأمور الري فهو الذي اصدر امره لحامية قلعة سمنة بأن تقيس في جهتها اقصى ارتفاع لمياه النيل كل سنة فتأسس لذلك مقياس النيل المذكور اعلاه . ولما كانت اخبار هذه المقاسات ترسل على عجل الى موظفي مكتب الوزير بمصر السفلى فقد تمكن القوم وقتئذ من تقدير مقدار المحبوب الممكن انتاجها في البلاد في السنة التالية. وبناء على ذلك قدروا نسبة الضرائب والرسوم التي تطلبها الادارة المالية من ذوي الاملاك (يرستد تاريخ مصر ١٢٣ ترجمة الدكتور حسن كمال)

(٢) مقياس النيل بمعبد كلابشة : — هذا المقياس في الجهة الغربية لممر المعبد الداخلي .

وهو محفوظ بحالة جيدة . ونكتفي الآن بالاشارة اليه تاركين التفصيل للمقاييس الاخرى التي تفوقه شأناً

(٣) في جزيرة انس الوجود (بيلاق او نيلة) مقياس للنيل وهو عبارة عن بئر في الجنوب الشرقي من اطلال الهيكل هناك وفيه سلم مستقيمة تحتوي اولاً على ٥٢ درجة وتنتهي ببسطة مربعة تنعطف منها على اليمين ١٢ درجة ممتدة الى ماء النيل . اما الماء فيدخل في هذه البئر من باب مصنوع باسفلها ومن بعض فجوات في الحائط يعلو بعضها بعضاً بمقادير متفاوتة . وفي هذه البئر جهة الشمال في اتجاه الدرجة المربعة التقاسيم القديمة منقوشة في الحجر بكيفية غير متقنة ومجزأة الى سبعة اقسام واحد يشمل ٤٢ درجة مقدرة بثلاث اذرع واربعة يحتوي كل منها على ٢٨ درجة وكل قسم مقدر بذراعين . ثم يلي ذلك قسمان آخران كل منهما ١٤ درجة وكلاهما مقدر بذراع . فعلى ذلك يكون مجموع الاذرع ١٣ ذراعاً . وقد اكتشف هذا المقياس المرحوم محمود باشا الفلكي عام ١٢٨٦ هجرية واصلحهُ وابقى تقاسيمه القديمة وجعل فيه المقياس عربيًّا بحسب الطريقة المتبعة في مقياس الروضة

وقد قدّر الباشا المذكور الذراع القديمة المستعملة لمقياس النيل فوجدها ثلاثة وخمسين سنتيمتراً . ولم يعلم بالضبط حتى الآن تاريخ انشاء هذا المقياس (عن المرحوم كمال باشا في الحضارة القديمة ص ٧٤)

(٤) وفي جزيرة اسوان (ويقال لها ايضاً الجزيرة وعند الافرنج الفانتين) مقياس للنيل في مقابل مدينة اسوان وهو عبارة عن سلم مدرج ينتهي بالمقياس وهذا عبارة عن تقاسيم ونقوش على جدار البئر . والتقاسيم عبارة عن اذرع والذراع مقسمة الى اقسام صغيرة كل منها يعادل اصبعين . وبعد ما مضى على هذا المقياس حوالي الالف سنة بلا استعمال اصلح في عهد الخديو اسماعيل عام ١٨٧٠ ميلادية كما يستدل على ذلك من النقوش العربية والفرنسية هناك . وعلى جدران السلم تشاهد نقوش يونانية يرجع تاريخها الى العهد الروماني توضح مناسيب النيل . ومقاسات هذا المقياس رومانية العهد والاذرع مكتوب عليها بالخط اليوناني . اما المقياس الحديث فمنقوش على الواح من الرخام

قال استرابون ان هذا المقياس مصنوع من احجار منحوتة نحتاً متساوياً وهو واقع على ضفة النيل ومنقوش عليه مناسيب النيل القصوى والصغرى على حدّ سواء لان الماء في هذه البئر يعلو وينخفض مع ماء النهر . وعلى جانب البئر علامات تشير الى ارتفاع الماء الى العلو الكافي للريّ وغير ذلك . وهذه المناسيب تقرأ وتدوّن وتنشر للعلم ..... ولهذا شأنهُ عند الفلاحين اذ عليه تترتب مواعيد الريّ والمحافظة على الترع والجسور الخ . ولهُ ايضاً شأن كبير عند الموظفين الماليين لان منسوب النيل وقت الفيضان له علاقة بالضرائب . فكلما علا المنسوب زادت الاموال

(٥) وفي معبد حوريس بأدفو دهليز مدرّج تحت الارض يبدأ من القسم الشرقي للمعبد حول المعبد وهذا الدهليز ينتهي الى مقياس قديم عبارة عن بئر دائري خارج المعبد ويحيط به سلم حلزوني وعلى حائط هذا السلم المقاييس والارقام الديموتيقية الخاصة بقياس النيل . وهذه البئر كانت متصلة بالنيل بطريق سفلي سدّ الآن ولم يعد على اتصال بالنهر

(٦) وفي الركن الشمالي الشرقي للسور الخارجي لمعبد مدينة هابو بالاقصر فوق البحيرة المقدسة وعلى بعد ٤٥ ياردة وفي الشمال الغربي منها يوجد مقياس للنيل ويتوصل اليه بباب منقوش عليه اسم الملك نقتانب الاول وهذا الباب يوصل الى حجرة ثم الى دهليز ينتهي بسلم مدرّج يصل الى عمق ٦٥ قدماً حيث توجد مقاييس الفيضان النيلي

(٧) مقياس الكرنك : — على جدار مرسى السفن القديم لمعبد الكرنك نقوش تدل على مناسيب النيل في عهد عدة فراعنة . وقد نشر هذه النقوش وترجمها الاستاذ لبجران في مجلة السيتشرفت الالمانية عدد ٣٤ . وهذا المرسى مشاد باحجار ضخمة وعليه ٤٥ نصّاً خاصة بمناسيب النيل ابتداءً من السنة السادسة للملك شيشاق الاول الى السنة التاسعة عشرة من عهد الملك بتاميك الاول. اما النصوص فبسيطة ولا يجد الباحث صعوبة في ترجمتها وهي عبارة عن تكرار للعبارة الآتية : —

« النيل في العام ... من حكم جلالة ملك الوجهين القبلي والبحري ... » وبجانب هذه النصوص توجد نصوص اخرى تاريخية واخرى لها علاقة بالري . خذ مثلاً النص الخامس الخاص بالعام الثالث لحكم الملك اوسركون الثاني فانه يخبرنا عن فيضان عالٍ جدًّا. وقد عثر الاستاذ داوسي في معبد الاقصر على نصوص هيروغليفية يرجع تاريخها الى ذلك الزمن شرحها امام المعهد العلمي المصري قائلا ان الثمانية الاسطر الاولى تصف حالة طيبة في هذا الفيضان غير الاعتيادي من حيث وفرته حتى صام الناس بالاحتفالات الكبيرة المعتادة للمعبود امون حامي المدينة . يلي ذلك دعاء من الملك الى المعبود امون ليوقف هذا الفيضان عند حده »

قال الاستاذ بتري في تاريخه عن مصر الجزء الثالث ص ٢٥١ ان هذا الفيضان حصل حوالي ١٠ اغسطس سنة ٨٧٦ ق.م . وهو ميعاد مبكر جدًّا لان اعلى الفيضان يبلغ اقصاه في طيبة حوالي ٢٥ اغسطس في الازمنة الحاضرة

وقبل الفراغ من هذا البحث يجدر بنا ان نذكر شيئاً عن مقياس الروضة ومقابلته بالمقاييس الفرعونية . فالمقاييس في العهد القديم كانت آباراً متصلة بالنيل ومنقوش على جدرانها المقاسات المصرية القديمة. ويظهر ان المقاييس تطورت بعد ذلك فجُعلت التقسيمات على عمود خاص وسط البئر وقد سبق ان ذكرنا ان لعظم الفيضان النيلي أثراً في نفس المصري القديم حتى اعتبره من عمل المعبودات فلما دخل العرب مصر تأثروا ايضاً بهذا الحادث السنوي العظيم وتذكروا قوة المولى جل وعلا فنقشوا الآيات القرآنية الشريفة عليه . وهذا المقياس شيّد في ايام سليمان بن عبد الملك الخليفة الاموي على يد أسامة بن زيد التنوخي عام (٩٦ — ٩٧ هجرية) (ويقابله ٧١٤ — ٧١٦ ميلادية) . وهو مكوّن من بئر رباعية الشكل تصل اليها مياه النيل من ثلاثة دروب وفي وسطه عمود مثمن الاضلاع نقشت عليه تقاسيم الاذرع التي تعرف بها ارتفاعات المياه . وكانت ابنية هذا المقياس اعظم كثيراً مما هي الآن فقد كان لها دار وفي جانب الدار فسقية عظيمة ذكرها ابن دقاق. وكان للمقياس قبة اما الآيات القرآنية التي نقشت عليه فهي : —

على الجانب الشرقي المقابل لمدخل المقياس : بسم الله الرحمن الرحيم : وانزلنا من السماء ماء مباركاً فانبتنا به جنات وحب الحصيد

على الجانب الشمالي : وترى الأرض هامدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج

على الجانب الغربي : ألم تر ان الله أنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة ان الله لطيف خبير

على الجانب الجنوبي : وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد

وهذه الآيات الشريفة موجودة الآن في المواضع التي ذكرت في رواية ابن خلكان

***

اعياد النيل السنوية التي يحتفل بها الآن هي في الحقيقة تكرار لاعياد فرعونية قديمة فمن هذه عيد ١١ بؤونة (١٨ يونيه) — المعروف بليلة النقطة — لاعتقاد العامة انهُ في هذه الليلة تنزل نقطة من السماء في النيل فتسبب فيضانهُ . والحقيقة ان هذه التسمية ناشئة من اعتقاد قدماء المصريين بان دمعة المعبودة ازيس تنزل في النيل في تلك الليلة فتحدث فيضانه . وادّعى علماء الفلك الاقدمون انهم تمكّنوا من تحديد الساعة التي تنزل فيها هذه النقطة . واعتاد قدماء القبط ان يتمموا هذه الليلة على شاطىء النيل مؤدّين انواع الخزعبلات — كأن يضع كل فردٍ من عائلة قطعة من العجين على سطح منزله فمن تخمّرت عجينته سُعد صاحبها . وفي ٢١ يونيه يرتفع منسوب النهر قليلاً وفي ٤ يوليو (٢٧ بؤونة) ينادي منادي النيل بان الفيضان بلغ الحد المطلوب . ولا بد ان القارىء سمع هذه المناداة مراراً ومن عدة اشخاص لانها دارجة ومنتشرة في القطر . يلي ذلك عيد جبر البحر او يوم وفاء البحر ويقع هذا في منتصف شهر مسرى (منتصف اغسطس) . ويحتفل رسميًّا بهذا العيد بمهرجان العقبة وذلك جهة فم الخليج . وفي هذا اليوم يصل منسوب النيل حدّ ١٦ ذراعاً

قابل هذا بما كان يقوم بهِ اجدادنا الاقدمون اذ يحين الانقلاب الصيفي ويأتي الماء المقدس من اصوان الى جبل السلسلة . فان القسوس المقيمين في هذا الجبل او الملك الحاكم أو ابنه كانوا يتقرّبون بثور او حيوان آخر ويلقون في الماء قرطاساً من البردي مختوماً يشتمل على امرٍ فيهِ اطلاق الحرية للنهر بالزيادة كي يضمن لمصر الخير بفيضان معتدل . فاذا كان المتقرّب بالقربان هو نفس الملك تقشوا على الصخر ما فيهِ تذكرة بهذا الاحتفال وكانوا يعتنون بهذا العيد سواء حضرهُ الملك او لم يحضره لانهم كانوا يراعون الرواية القديمة القائلة « ان سعادة السنة وشقاءها متوقفان على ذلك المهرجان . فان حصل في شأنه إهمال او توانٍ رفض النيل الامر الصادر اليهِ واغرق الاهالي والجهات »

وفي هذا الموسم كان الفلاحون يأتون بالزاد ويأكلون معاً اياماً متوالية ويشربون حتى يثملوا ويستمرّون على ذلك حتى يأتي اليوم الكبير فتخرج حينئذٍ القسوس من المحراب ومعهم التمثال فيزفونهُ على الشاطىء بالالحان والاصوات المطربة والترتيل والمديح وصدح الآلات الموسيقية

وفي الجهة البحرية من جبل السلسلة معبد شيّد في العام الاول لحكم الملك منفتاح مرسوم فيهِ

الملك يقدم القرابين للمعبودات (حراصت) و (بتاح) ومعبود النيل (وذلك على يمين الداخل) ويقدم ايضاً القرابين للمعبودات (امون) و (موت) و (خنسو) (وذلك على يسار الداخل) . اسفل ذلك تشاهد نقوش مدحة النيل الطويلة وقائمة بالهدايا التي تقدم لمعبود النيل

اما السبب في الاحتفال بفيضان النيل جهة جبل السلسلة فهو ان النيل اعتبر قديماً انهُ ينبع من صخور ذلك الجبل . واستمر القوم يعملون المهرجان في تلك الجهة على توالي العصور بالرغم من تتبعهم للنيل الى اقاصي السودان السابق ذكرها في المقال السالف

ويقال ان السبب في تسمية هذا الجبل بهذا الاسم هو ان وادي النيل كان موصداً في تلك الجهة بسلسلة عظيمة مثبتة في جانبيه المقابلين لبعضهما

وللنيل مدحة كان القوم ينشدونها في اعياده وُجدت مدوّنة على عدة آثار منها درج ساليير الثاني ودرج انسطاسي السابع (وهما محفوظان في دار التحف بلندن) ودرج تورين . وايضاً على قطعة حجرية ostreca تعرف باسم الاستاذ جولنشيف الروسي وقد سبق ان المعنا الى نقش هذه المدحة بجبل السلسلة وذلك في ٢١ مايو سنة ١٣٠٠ قبل الميلاد في عهد الملك رمسيس الثاني ثم اعيد نقشها بنفس الجهة في السنة السادسة من حكم رمسيس الثالث اي سنة ١١٩٦ قبل الميلاد (الذي حكم القطر من سنة ١١٩٨ — سنة ١١٦٧ . م) . واليك ترجمتها عن المرحوم كمال باشا (الحضارة القديمة) : —

السلام عليك أيها النيل يا من ظهرت على هذه الارض واتيت لاحياء مصر . انت الذي يختفي مجيئك في الغياهب الى يوم الترتيل بقدومك . انت البحر المفيض بمياهك على البساتين التي اوجدتها الشمس لكا لتحيي جميع ما يكون . انت الذي تمتنع عن ريّ الصحراء حين نزولك من مياه السماء . فمعبود الارض (سب) يتولع بايجاد العيش ومعبود الجبوب (نبرا) يقدم قرابينه . والمعبود (بتاح) يسلح احوال العامل . انت صاحب الاسماك . متى تجاوزت الشلال لم يعد الطير ينزل الى الحقول . انت صانع القمح وموجد الشعير ومطيل اجل المعابد . ان تعطلت أصابعك او اعتراك كساد اصبحت الالوف من الناس في فاقة . وان نقصت وقت نزولك من السماء افنيت المعبودات والخلق وتكدرت الحيوانات وصارت الارض كباراً وصغاراً في عذاب . واذا كانت الحال على عكس ذلك واستجيب دعاء الناس حين تفيض وتكون لهم نيلاً مباركاً عند ارتفاعك حينئذ تصبح الارض مبتهجة وتشرح كل ذي بطن ويهتز كل ظهر من الضحك وتضغ كل سنة . يا مجلب الارزاق ومكثر المأكولات ومبدع أحسن الاشياء . انت صاحب الجرائم . انت اللطيف بمجيئك حين تكون خليلاً لهم . نعم انت الذي توجد علف الحيوانات وتعطي كل ما لزم لقرابين المعبودات . فالبخور انتاج عملك هو الاجود . انت الذي تهتم بالقطرين فتمتلىء المخازن وتزداد خيرات الفقراء . انت الذي تستجيب دعاءهم عند تقديم النذور فلا ينقصهم شيء . انت سند الفقراء لم تصوّر في حجر ولم تمثل بتمثال ذي التاج المزدوج . ولم تبصرك العين ولم تدفع لك جزية . ولم يؤت اليك بقربان . ولم يؤثر فيك كلام السحر

الخفي ولم يعرف لك مكان . ولم يهتد الى مقرك بسرّ الطلاسم السحرية . لا بيت رحيباً يكفيك . ولا احد يطلع على ضميرك . ان ذراري اولادك تشرح منك . لانك تحكم كملك اوامره نافذة على جميع اهل الارض . يتجلى في مشهد من سكان اهل الجنوب وسكان اهل الشمال . وهو الذي يشفق فيجفف دموع الاعين ويفيض باحساناته . اينما وجدت حلت الافراح وانشرحت الصدور واخذ التفاح يشب سروراً لان طائفة المعبودات المصاحبة لك اعدت كل شيء واخذ الفيضان يروي الحقول ويجعل جميع الناس في تهامة . وكل يروي بدون نزاع . فاذا دخلت كنت محاطاً بالاغاني . واذا خرجت صاحبك التهليل . واذا رقصوا فرحاً يوم ظهورك من غياهبك فما ذلك الاّ لكون عجزك اضمحلال لهم وفساد . ومتى تضرعوا اليك لبالوا الماء السنوي شوهد اهالي مصر الوسطى واهالي الوجه البحري مصطفين بعضهم بجانب بعض وشوهد كل امرىء حاملاً بعدد صنعته ولا يثروي احد وراء جاره . ولا يلبس احدٌ ملابس الاعياد . ولا يتحلى بحليّ . وطائفة المعبودات التسعة تلبث في ظلمة . لكن متى منحت الزيارة تعطر كل انسان . انت منبت الارزاق الحقيقية التي هي رغبة الناس . هذا هو كلام الالتماس الذي يجعلك محبباً لدعائهم . اذا تكرمت بلجج المحيط السماوي على الانسانية قدم إلهة الجنوب (نبرا) قربانه وتهجدت لك كل المعبودات ولم تنزل الطيور فوق الجبال . ومتى مجنت يداك شيئاً صار ذهباً او طوبة صارت فضة . نعم لا يؤكل اللازورد . لكن التفاح افضل من الاحجار الكريمة . لقد شرعوا ينشدون على الناس ويرتلون لك ويصفقون باستمرار لتبتهج من اجلك ذراري اولادك وليكثروا من اجلك اناشيد المديح كيف لا والنيل هو الهة الثروة الذي يحسن الاراضي ويكثر السمن في عيون الناس . وهو الذي يحيي قلوب النساء الحيالى ويحب كثرة الحيوانات . اذا ما ارتفعت في ماسنة الامير شبع الغني وعفى الصغير الموطس وصار كل شيء ثابتاً وجيداً للغاية ووجدت جميع الحشائش لاولادك ، ولو اغفلت عن اعطاء الغذاء زالت السعادة من المساكن وحلّ بالارض الضعف الشديد

ولعلّ اقدم رسم للنيل هو الوارد في لوح العاج للملك مينا اول ملوك الاسرة الاولى وجد بالعرابة يرجع تاريخه الى حوالي (٣٤٠٠ سنة ق . م .) تشاهد عليه نقوش تعتبر من اقدم النقوش الهيرغليفية المعروفة للآن . وهو مقسم الى اربعة اقسام . فالقسم العلوي يحوي في طرفه الايسر رسم الباز الملكي الخاص بالملك مينا وفي طرفه الايمن رسم معبد منصوب في حوشه رمز المعبودة (نيث) وتعلو هذا الرسم سفينة . اما القسم الثاني فيشاهد في طرفه الايسر الملك قابضاً على وعاء من « مزيج الذهب والفضة » ومقدماً القرابين اربع مرات . ويشاهد في الطرف الايمن رسم ثور داخل حوش يعلو احد اطرافه طائر (الفينكس) والقسم الثالث يحوي رسم النيل تمخر فيه السفن وتشرف عليه المدن وتعترض مجراه الجزر . والقسم الرابع ويحوي رسوماً هيرغليفية قديمة غير مفهومة